

الطفل وحضارة الصورة التلفزيونية

د. المنصف العياري

الجامعة التونسية

إننا نعيش عصر المعلومات. وهذه بديهية غير قابلة لا للنقاش ولا للتشكيك.. ويتميز هذا العصر بتأثير ثلاثية المعلوماتية والسمعي والبصري وتكنولوجيا الاتصال. وتتدفق يوميا كل دقيقة بل كل لحظة كميات هائلة ومهولة من المعلومات من كل صوب وحذب عبر أجهزة متعددة منها الحاسب والتلفزيون والإذاعة. وكما أن هذه الوسائل هي وسائط لتنمية القدرات والمواهب وصقلها ونشر المعرفة والتثقيف والترفيه فإنها قد تُعتمد وتوظف بطريقة سلبية للتضليل والتشويه والاختراق. وأصبح الإعلام واحدا من أهم مكونات التنشئة الاجتماعية ونافذة الطفل على العالم.

ونهتم في مداخلة الحال بجهازي الإذاعة والتلفزيون باعتبارهما من أبرز أجهزة التأثير الإعلامي التي تشد إليها بفضل التقنيات الصوتية أو الصوتية والمرئية.

ولعل الطفل من أهدأ الفئات التي تستهدفها هذه المؤثرات منذ سنواته الأولى بل منذ أشهره الأولى،

ولهذين الجهازين، مع تفوق واضح للتلفزيون، قدرة عجيبة على الشد والجذب باعتماد تقنيات ومؤثرات تسمح بممارسة تأثيرات إعلامية وثقافية فيها ما هو إيجابي وفيها ما هو سلبي.

إن البرامج الإذاعية والتلفزيونية، وخصوصا منها الموجهة إلى الطفل، إذا افترضنا أن الطفل لا يتابع إلا البرامج الموجهة إليه، تنقل صورة عن واقعه ومحيطه ومكانته في هذا الواقع.

ويتأثر الطفل كثيرا بالصورة التي يرى نفسه أو الطفل عليها عبر هذين الجهازين حتى وإن كانت هذه الصورة افتراضية.

وقد تكون الصورة التي تنقلها الإذاعة والتلفزيون عن الطفل وأسرته ومجتمعه إيجابية أي أنها تتلاءم وخصوصيات المجتمع الذي ينتمي إليه الطفل. وقد تكون الصورة غريبة عن الطفل وواقعه وعن أسرته ومجتمعه وواقعهما.

صورة الطفل في البرامج الإذاعية

تعتمد البرامج الإذاعية الموجهة إلى الطفل رواية قصص مختارة أو تشريك الأطفال في برامج حوارية. ولعل مساهمة الطفل في مثل هذه الحوارات يشعره بأنه متلق فاعل دون أن يكون مستهلكا سلبيا للمادة المقترحة.

ولعل المأخذ الأساسي على هذه البرامج تركيزها على المسائل المتعلقة بالتربية والثقافة في حين أن الطفل يتطلع إلى عالم أرحب وأوسع من المعرفة. وتعتقد هذه البرامج خطأ أن الطفل ينقصه رصيد ثقافي فقط. لذلك يقع تغييب المواضيع الاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية.

ولا يمكن الانصهار في عصر العولمة دون تسليح الطفل منذ الصغر بأسلحة هذا العالم الجديد الذي يعيشه وسيعيشه. ويتم ذلك بتبسيط المعلومة وجعلها في متناول المستمع الصغير.

كما أن البرامج الإذاعية تفرط في السعي إلى غرس جانب من الوطنية في الطفل. لكن ذلك لا يجب أن يعزز لدى الطفل الشعور بالانزواء والانكماش مما يؤدي على الانغلاق.

فالبرامج الإذاعية مدعوة إلى مخاطبة الطفل على أنه يعيش عالما مفتوحا ومنفتحا فيه الأنا وفيه الآخر.

كما أن البرامج الإذاعية تتوجه عادة إلى جمهور الأطفال من المدينة وتطرق

إلى مشاغلهم واهتماماتهم على حساب أطفال الريف الذين يشعرون بالإقصاء والتهميش مما يفرز رغبة في الهروب على خطاب آخر لا يكون بالضرورة محايدا.

صورة الطفل في البرامج التلفزيونية

تنقسم البرامج التلفزيونية إلى حصص حوارية تنشيطية تكون عادة أسبوعية وإلى صورة متحركة تستأثر بنصيب الأسد. وتكون أفلام الكرتون بلغتها الأصلية الأجنبية أو مدبلجة. ويقع إنتاج عدد محدود من الرسوم المتحركة عربيا على غرار السلسلة المصرية (بكار).

وسنركز الاهتمام بالخصوص على أفلام الكرتون ومحتوياتها باعتبار أنها تستأثر بأوفر قسط من ساعات البرمجة يمثل حوالي ثلثي ما يبرمج يوميا ولأنها تستقطب جمهور الأطفال.

تعتمد هذه الأفلام الحيوانات أبطالا أو مساندين للأبطال بهدف ضمان متابعة الأطفال للعلاقة الوثيقة التي تربطهم بعالم الحيوانات وخصوصا الأليفة منها (القط والكلب والأرنب هي الحيوانات التي يتكرر حضورها بصفة عامة في أفلام الكرتون).

كما تتضمن هذه الأفلام صور حيوانات خيالية لا وجود لها على أرض الواقع. كما أن هذه الأفلام عادة ما تسمي أبطالها بأسماء غير عربية، بطبيعة الحال، مما يعيق الإحالة إلى مرجعية تمثل جذور الطفل العربي المشاهد. وحتى وإن قامت بعض البرامج بتعريب الاسماء، فإن العملية تكون مركبة والاسم غير مطابق للمسمى (اختلاف الملامح...).

ولا يمكن أن ننكر أن أفلام الكرتون المدبلجة أو الناطقة بلغتها الأصلية تتضمن رسائل إيجابية مثل الاعتماد على الذات وقيمة العمل وأهمية الحوار... ولعل الثنائية التي ركزت عليها الرسوم المتحركة وكثفت من التركيز عليها في الفترة الأخيرة هي ثنائية الخير والشر المتصارعين دائما. وتتضمن أفلام الكرتون

رسائل من قبيل اتحاد قوى الخير ضد مصدر الخطر والشر. ويمثل الخطر والشر الحيوان الأشرس أو الساحر أو الساحرة. وهكذا يصبح كل فاعل للشر بالنسبة إلى الطفل الصغير إما حيوانا كبيرا ماكرا ومخادعا وغما ساحرا عجوزا.

ولعل ترويج مفهوم إمكانية اعتراض سبيل الصغير الأليف والوديع (حيوان على تلك الشاكلة في أفلام الكرتون) من قبل حيوان مفترس يريد الفتك به، يجعل الطفل في حالة خوف دائم ومستمر من أن يقع افتراسه.

وإن ترسيخ فكرة الصراع بين الخير والشر لا يمكن أن تكون تلقائية وبريئة بل إن الغرب يوظفها ليقنع المشاهد الصغير أن الحروب التي يقودها الغرب هي ضد قوى الشر ومن يمثلها.

وتعتبر أفلام الكرتون الطفل الذكي مثاليا. ولكن هناك عديد العوامل التي تحدد درجة ذكاء الطفل وقد لا يكون للصغير دخل فيها (تخلف ذهني خلقي مثلا). فهل يعني ذلك تغييب صورة الصغير محدود الذكاء أو إقصاء كل من يشكو علة معينة أو إعاقة من المجتمع؟

إنه بالإمكان توسيع دائرة التساؤل للقول هل أن العصر المعولم الذي نعيشه يفرض بقاء الأقدر والأذكى وفناء الأغبياء والضعفاء؟ نعم هو ذلك فعلا. فيجب على الطفل أن يفهم أن العالم هو عالم الأسوياء الأقوياء (ازدواجية على مستوى مفهوم القوة). وذلك ما يغرس لديه أفكارا سلبية على غرار العمل على عدم الالتفات إلى محدودي الذكاء...

وعلى جانب آخر، فإن البرامج التلفزيونية المستوردة والموجهة إلى الطفل تتضمن صورة عن مجتمعات غربية لها قيمها وأخلاقها التي لا تتلاءم ضرورة مع قيم مجتمعاتنا وأخلاقها. فهذه البرامج تروج مثلا لإيجابية الانفصال المبكر عن العائلة والاعتماد على النفس قبل الأوان.. ففي النموذج الغربي، يدفع بالطفل أو الشاب الصغير خارج نواة الأسرة نحو الفضاء الواسع حيث يشعر بالسعادة رغم بعده عن

العائلة. ولهذا الابتعاد المبكر تأثير على التوازن النفسي والعاطفي والروابط الأسرية وغيرها.

وإن الشركات العالمية العملاقة التي تنتج أفلام الكرتون تعتمد إمكانات ضخمة تقنيا وبشريا وماليا وتوظيفها للإثارة وشدة الانتباه من خلال الألوان وأشكال الرسوم وتصرفاتها والمؤثرات وتقنيات الإخراج.. وإن التقنيات المتطورة المتوفرة لدى أضخم شركات إنتاج أفلام الكرتون العالمية تسمح لها بإخراج عمل تلفزي كفيل بالاستثمار باهتمام جمهور الأطفال.

وللتصدي لمثل هذا التيار، وجب عدم الاكتفاء بإنتاج بعض أفلام الكرتون العربية. لكن المطلوب والضروري سير آراء الطفل ومعرفة ما يشده في أفلام الكرتون الغربية وتوظيف الإجابات في الإنتاج المحلي والعربي.

كما أنه من الضروري رسم صورة متطورة للأبطال لا تستبيله الأطفال وترك لهم نافذة يتفتحون من خلالها على غيرهم من أطفال العالم. (من أنا؟ قبل أن أعرف من الآخر؟).

ويستوجب هذا العمل توظيف الميزانيات الضخمة بهدف الحصول على إنتاج جيد وجذاب وقادر على المنافسة.

وإننا لا يمكن أن ندعو إلى عدم بث البرامج المستوردة لأن الطفل يستطيع مشاهدتها على قنوات أخرى بل يصبح مصرا أكثر من أي وقت مضى على مشاهدتها. ولكن يقع بث برامج محلية مع بث أفلام الكرتون الجيدة وغيرها حتى تنشأ علاقة الألفة بين الطفل العربي والإنتاج الموجه إليه ولتتاح فرصة التمييز بين ما يتماشى وخصوصياته وما يتماشى وخصوصيات غيره وبين ما هو عالمي أي يتوجه على جميع أطفال العالم.

ومن مخاطر إدمان الأطفال على مشاهدة التلفزيون، سواء البرامج العامة أو الموجهة إليهم، التعرض إلى مشاهد العنف. وقد ذكرت دراسة نشرت عام 1995

بعنوان الأطفال والتلفزيون (مواري ولومبورج) أن الطفل عندما يتم مرحلة التعليم الابتدائي يكون قد شاهد نحو 20000 مشهد قتل او موت وأكثر من 80000 مشهد اعتداء. ويعرض البعض من هذه المشاهد في برامج عامة وبعضها الآخر ضمن أفلام الكرتون.

ولمشاهد العنف تأثيرات محتملة على الطفل من بينها بالخصوص :

- يصبح الطفل أقل إحساسا بالآخرين وآلامهم ومعاناتهم.

- يصبح الطفل أكثر رهبة وخوفا من المجتمع الذي يحيط به أو العالم الذي

يعيش فيه.

- يميل الطفل إلى السلوك العدواني ويصبح أكثر استعدادا للتصرف بشكل

ضار من شأنه أن يؤذي الغير.

ولعل من أخطر التأثيرات السلبية للتلفزيون على الأطفال هو الاتجاه إلى

العنف حيث يحاول الطفل أن يقلد ما يشاهده والتشبه بالشخصيات التي تقوم

بأعمال الجريمة أو العنف.

ومع كل ما تقدم، فإننا لا يمكن ان نجزم أن كل ما هو غربي أو أجنبي أو

مستورد سيء. ولكن العرض وطريقة التعرض إلى هذه المواد الإعلامية هي التي

تفرض الوعي والترشيد. والمهم تحقيق معادلة بين إنتاج تتمثل إيجابياته في تنمية القيم

الاجتماعية والتطور الفكري وإنتاج محلي يعبر عن قيمنا الاجتماعية والوطنية.

وإلى جانب أفلام الكرتون، هناك برامج تنشيطية موجهة إلى الطفل. وهي

تطرح عادة مشاكل الطفل إما بسطحية وإما من منظور الكهل الذي يعد البرنامج.

كما أن الأطفال يحضرون بعض هذه البرامج حضورا شكليا فقط.

وما زال أسلوب التنشيط موجهها بالأساس إلى الكبار ما عدا بعض

الاستثناءات في القنوات التلفزيونية الخاصة بالأساس لأنها تجارية وتحدد مدى تفاعل

الجمهور مع برامجها لأن هذا الجمهور هو الضامن الوحيد للمواصلة. وهذا على عكس القنوات التلفزيونية الحكومية.

وعادة ما يتم تسجيل الحصص التنشيطية في إطار مكاني ضيق (الاستديو). والأجدر ان يكون التنشيط مرتبطا بمساحات واسعة حيث يشعر الطفل بالحرية والتحرر من قيود الاسرة والمدرسة والمجتمع.

ومن مقاييس المشاركة في البرامج التلفزيونية المحلية، الجمال والتألق والقدرة على الانتقال إلى مقر التسجيل. وهذا ما يولد شعور جمهور من الأطفال بالغبن وبالتالي النفور من متابعة هذه البرامج. ويقبلون أكثر على البرامج المستوردة أو الأجنبية. ففي بعض الأحيان تكون برامجنا التلفزيونية هي التي تدفع الطفل للارتقاء بين أحضان الخطاب الآخر والرسالة الأخرى.

مسألة أخرى لا بد من طرحها وهي من أسباب نفور الطفل من متابعة البرامج الموجهة إليه وهي عدم احترام التفاوت بين الفئات العمرية. فهذه البرامج تساوي من حيث درجة الفهم بين أطفال من فئات مختلفة.

والمطلوب هو التخطيط الواضح والدقيق مع تشريك الأطفال فعليا في رسم صورتهم من خلال البرامج الموجهة إليهم حتى نقدم صورة أقرب ما تكون على الواقع. ولأن المطلوب هو أن يرى كل الأطفال أنفسهم في الصورة التي تبثها التلفزة مهما اختلفت قدراتهم العقلية والنفسية والمادية.

ولعل أبرز مركات استراتيجية الخاصة بإنتاج البرامج الإذاعية - والتلفزيونية الموجهة على الطفل تتمثل في النقاط التالية :

- تجنب التعارض بين الواقع الذي يعيشه الطفل داخل أسرته وخارجها والواقع المصطنع والوردي الذي قد تعرضه وسائل الإعلام.
- الحرص على إعداد إنتاج يتلاءم والخصوصيات الحضارية والثقافية والدينية للمجتمع العربي المسلم.

- السعي على توسيع دائرة معارف الطفل حتى لا يكرر الخطاب الإعلامي
'ما تقوم به المدرسة.

- السعي إلى الترفيه الهادف بعيدا عن التهريج.

- مزيد تشريك الأطفال في صياغة برامجهم وتصورها وإنتاجها.

- الوقوف بكل حزم في وجه ترويج الرموز الفكرية التي تصنع بغاية الإساءة

إلى هذه الفئة الهشة من الجمهور.

ومن الضروري وضع استراتيجية عربية موحدة لإنتاج برامج الأطفال تربط

الطفل العربي بتاريخه وتراثه وقيمه العربية الأصيلة عبر إنتاج أفلام وبرامج الرسوم

المتحركة لكي لا يظل الطفل العربي معتمدا في تنشئته الاجتماعية الثقافية على

الإنتاج الأجنبي بالأساس.